

## مساهمة التعليم الحر في النهضة القومية

للاستاذ محمد عبد الواحد خلاف

مراقب التعليم الحر المساعد

بدأت حركة التعليم الحر في مصر منذ أكثر من نصف قرن . وكان الفضل في ظهورها لما غلب على السياسة التعليمية الرسمية في ذلك العهد من جمود وميل للتضييق والتقييد في هذه الناحية . وامل الكثيرون يذكرون كيف كانت مدارس الحكومة إلى أوائل القرن الحاضر لا تعدو مدرسة ابتدائية واحدة في عاصمة كل مديرية ومحافظة وبضعة مدارس ابتدائية بالقاهرة وثلاثة مدارس قانونية زيدت إلى أربع في أوائل هذا القرن وعدد قليل من المدارس الفنية والعالية . وكانت جميعها محدودة العدد محكمة التقييد بحيث لا يظفر بها فيها إلا قلة من أبناء البلاد القادرين على دفع المصروفات واحتمال نفقات إلتحاقهم من بلادهم ولم يكن هذا النظام بالضرورة نظاما قوميا للتعليم ولكنه نظام حكومي أريد به إعداد من تحتاجهم أداة الحكم من موظفين كتابيين وفنيين .

ولما كان هذا النظام بطبيعته هذه لا مكان فيه للوهو بين من الفقراء ولا لأبناء الطبقة الوسطى الذين لا يقوون على تكاليفه وخاصة متى كانت بلادهم بعيدة عن مقر المدرسة فقد نشأ عن ذلك إحساس كثيرين من قادة الرأي بضرورة قيام الشعب من جانبه بمجهود إيجابي لسد هذا المقيص .

لهذا تكونت الجمعيات الخيرية الكبرى في العقد الأخير من القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر وجعلت أهم أغراضها التعليم لأنها رأت فيه أفضل وجوه البر بالفقراء فهو ينمض بهم ويعلمهم حياة خير مما يحبون وهو يتيح الفرص لظهور المواهب الخسوبة والكفايات المحجوبة فتفتح البلاد بها وتفيد من مزاياها .

فكونت الجمعية الخيرية الإسلامية ويكفى للدلالة على عظم المهمة التي أسست لها أن نشير إلى أن من مؤسسيها الأستاذ المغفور له الشيخ محمد عبده والزعيم العظيم خالد الذكر المرحوم سعد زغلول باشا والمصلح الاجتماعي الكبير المرحوم قاسم أمين بك والزعيم الكبير المغفور له محمد فريد بك والمرحوم أحمد فتحي زغلول باشا وغيرهم من أعلام النهضة الحديثة وقد بدئ بإنشاء مدارس مجانية في أهم بلاد القطر ثم زادت في عدد مدارسها بكثير من المدن المحرومة من المدارس .

كذلك تكونت جمعية العروة الوثقى وقصرت نشاطها على مدينة الاسكندرية حيث أنشأت في كل أحيائها مدارس عمرت بالفقراء وأبناء الطبقة الوسطى .

وتكونت جمعية المبعي المشكورة وحصرت نشاطها في مديرية المنوفية حيث أنشأت مدرسة بكل مركز من مراكزها .

وتكونت جمعية التوفيق القبطية والجمعية الخيرية القبطية كما نشطت بطريركيسة الأقباط الأرثوذكس فأنشأت مدارس كثيرة بختلف أنحاء القطر واهتمت إدارات الأوقاف الخيرية المختلفة فأنشأت المدارس وأنفقت عليها من ريع تلك الأوقاف .

وحركت دعوة الخير كثيرا من الأغنياء للاهتمام بالتعليم فمنهم من تبرع للجمعيات الخيرية السالفة الذكر بما يقويها ويزيد نشاطها في تلك المهمة كالمغفور له أحد المنشاوي باشا . ومنهم من أسس في بلاده وأوقف عليها ما يساعد على أداء واجبها كالمرحوم مصطفى الشوربجي بك الذي أسس مدرستين بكم حماده وكفر الزيات ، وكشك بك الذي أسس مدرسة بزقي ، والأفلى بك الذي أسس مدرسة بمنا القمح ، وزعزوع بك الذي أسس مدرسة بني صوف وغيرهم ممن تقربوا لله والوطن بإنشاء المدارس وإفساح السبيل لتعليم أبناء الشعب بها .

وقد نجحت هذه المدارس في مهمتها أ كبر نجاح وازداد عدد المتفهمين ازديادا كبيرا وكتب لبعضها في كثير من الأحوال أن تبرز مدارس الحكومة في الامتحانات العامة وظهر منها كثير من الفقراء المتنازي المواهب وكان نجاحها حجة قوية استغلتها الدعاة السياسيون في التدليل على مقدرة هذه الأمة على الاضطلاع بأعبائها الخاصة والاستقلال بإدارة شؤونها وقد تشجع كثير من الأفراد بهذا النجاح وبما بدا من الأمة من تعطش للتعليم ورغبة في الاستزادة من المدارس فأنشأوا المدارس كوسيلة من وسائل الارتقاء الشريف وباب من أبواب الخدمة الوطنية العامة وكتب لكثير منهم التوفيق في الغرضين .

ولم يقتصر لإنشاء المدارس على الجمعيات وذوى الخير من الأغنياء وطلاب الارتقاء عن طريق التعليم . بل لقد فكر بعض رجال السياسة في إنشاء المدارس لبث المبادئ الوطنية ككلية مصطفى كامل التي أنشأها المغفور له مصطفى كامل باشا وكمدرسة الإعدادية التي أنشأها المغفور له عبد العزيز جاويز بك .

وعلى الرغم من أن الحكومة بعد أن صارت مقاليد أمورها إلى أيدي أبناء البلاد قد نشطت في ناحية التعليم نشاطا عظيما فتوسعت في إنشاء المدارس المختلفة الأنواع بشقي أنحاء القطر وعلى الرغم من أنها أدخلت نظام المجانية وهيأت السبيل لامتازين من أبناء الفقراء في التعليم

بمدارسها . على الرغم من هذا كله لم يفتر نشاط المدارس الحرة ولم يقل مددها بل هو في ازدياد عاما بعد عام ولا تزال إلى اليوم تضطلع بالعبء الأكبر في تعليم أبناء هذه البلاد .

ويكفي لتبين ما وصل إليه التعليم الحر الآن أن نذكر أن عدد المدارس الحرة للبنين يبلغ نحو ثمانية مائة وعدد المدارس الحرة للبنات نحو مائة مدرسة وخمسة ويتعلم بهذه المدارس ما يزيد على ستين ألفا من البنين وعشرين ألفا من البنات وهذا العدد يقرب من ضعف من يتعلمون بمدارس الحكومة الابتدائية والثانوية . ولم ندخل في حسابنا هذا المدارس الأجنبية الكثيرة التي تعلم عددا خيرا قليل من المصريين .

ومن هنا كان اهتمام الحكومة الشعبية بأمر هذا التعليم وتنويعها بأهميته في خطاب العرش في الدورة البرلمانية الحالية .

وهنا نعرض لفكرة جاء لها ذكر في إحدى الدورات البرلمانية ، فقد تساءل بعضهم لما إذا لا تخفف الحكومة من كثير من أعبائها في التعليم الثانوي وتكل أمره للتعليم الحر كما هو الحال في كثير من الأمم الرافقة وتفرغ هي لمهمتها التعليمية الكبرى وهي تعميم التعليم الأولي ونشر التعليم الفني والعالي .

ولكننا نقرر مع عظيم تقديرنا لجهود المدارس الحرة أن الوقت لم يحن بعد لكي تخطو الحكومة مثل هذه الخطوة وأن مستوى كثير من المدارس الحرة لم يصل بعد إلى المستوى الذي يسمح بأن يمهدها وحدها بهذه المهمة .

إن مباني كثيرة من هذه المدارس لا يزال غير ملائم لحاجات التعليم . ومعدات الدراسة في كثير منها لا تزال بحاجة إلى الاستكمال وهيئة التدريس فيها لا تزال بحاجة إلى التقوية . والحالة المالية في كثير منها لا تزال بحاجة إلى التدعيم والتوطيد .

وتسعى الوزارة دائبة في مساعدة المدارس الحرة من هذه النواحي جميعا .

فهى تقدمها بمساعدات مادية وتستعين بها على القيام بالإصلاحات الضرورية واستكمال وسائل التعليم الأساسية .

وهى تعمل على إثارة العناصر الفنية في هيئة التدريس بها وتشجيعها على ذلك بدفع قسط كبير من مرتبات هؤلاء المدرسين من جانبها وبفضل ذلك أصبح نحو ستين في المائة من مدرسيها من الفنيين .

وهى تضع الأنظمة بتحديد العلاقات بين هؤلاء المدرسين وأصحاب المدارس حتى تستقر أحوالهم وتطمئن نفوسهم وبذلك يتحقق قيامهم بواجبهم على أفضل وجه .

وهي تراقب المدارس وتصرفاتها وتحاسبها على كل انحراف عن سبيل التربية الصحيحة. ويوالى مفتشوها زيارة هذه المدارس وتتبع أحوالها ويقدمون لها الإرشادات الفنية والإدارية الكاملة بحسن سيرها وانتظام شؤونها .

وهي تشرف على امتحاناتها وتتولى بنفسها امتحانات النقل في مدارسها الثانوية وبذلك تطمئن إلى وضع كل طالب في مكانه الصحيح .

وبالإجمال لا تالو الوزارة جهدا في رعاية شؤون هذه المدارس والعمل على رفع مستواها. ووزير المعارف الحالي من أشد العاملين على حركة التعليم الحروا أكثرهم اهتماما بأمرها ، وقد كان له الفضل في مضاعفة اعتماد التعليم الحر في عهده السابق بوزارة المعارف كما كان له الفضل في تقرير اعتماد اضافي كبير لهذا التعليم في هذه السنة .

بقى أن نعلم ماذا ينتظر لهذا التعليم من التطور في المستقبل وإلى أى اتجاه نرجو أن يتجه؟ إن الذى نتوقعه أن رقابة الحكومة اليقظة ورعايتها الأبوية لهذا التعليم سيكون من شأنهما أن تصل هذه المدارس إلى منزلة عالية من العلاج لأداء مهمتها ، وسيكون أهم مظاهر ذلك أن يكون كل مدرسيها من الفنيين الأكفاء .

ونتوقع أن تحسن مباني تلك المعاهد وتصير مستعدة لكل معدات الدراسة الحديثة من معامل ومكاتب ومناحف وملاعب .

ونتوقع تحت ضغط هذه الرقابة القوية أن تخفى المدارس الهزيلة وأن تتحول الجهود الفردية إلى جهود جماعية تحركها روح الإصلاح والخدمة العامة لروح الاتجار والاستغلال .

وما يدرينا أعلها إذ ذاك تتجه اتجاهات جديدة وفاء بحاجات البلاد وتحقيقا لأمانها .

ما يدرينا ، لعل القائمين بأمر هذه المدارس يمتد نشاطهم إلى نواح جديدة غير التعليم الابتدائي والثانوى. لعل منهم من يفكر في أمر من يشتغلون بالأعمال والمهن ممن آتموا الدراسة الأولية وحاجتهم إلى تنقيف تكبيل يزد بصرهم بأعمالهم ويوسع أفقهم في الحياة العامة فينشئ لهم معاهد لهذه الدراسات التكميلية .

ولعل منهم من يستجيب لحاجة كثير من الشباب المنقف للاستزادة من العلم والثقافة فيقوم لهم بكثير مما تقوم به مدارس المراسلات والأقسام المسائية التى تزودهم بالدراسات الخاصة وتقدم للدرجات الجامعية .

ولعل منهم من يتسع وقته وجهده للساهمة في الخدمة العامة بتقوير الشعب بالمحاضرات العامة كما تفعل بعض المعاهد الأجنبية .

إن ذلك كله في حيز الاحتمال ولا متينا متى صار أمر هذه المدارس الحرة كلها إلى جماعات لا تبني من وراء مهمتها نفعا خاصا ولكنها تسعى لإداء واجب وطني وخدمة عامة .

بلى ما يديرنا ، لعل هذه المدارس تكون قريبا حاملة لواء الإصلاح والتجديد حتى في التعليم الابتدائي والثانوي .

إن لنا من الحرية ومرونة الأنظمة واستقرار هيئة التدريس بها وسرعة استجابتها لحاجات البلاد ما يسمح لنا متى توافر لديها الأكفاء من المدرسين أن تسبق الحكومة إلى اقتباس بعض الأنظمة الحديثة وتجربة بعض الطرق الجديدة . ولقد حدث في الماضي من ذلك ما يجعلنا على توقع حدوثه في المستقبل ، فالجمعية الخيرية الإسلامية سبقت الحكومة بعشرات السنين في إدخال مواد التربية الوطنية ومبادئ العلوم والصحة والأشغال اليدوية في مناهجها .

وبعد ، فاعل القارئ الكريم يرى معي كيف صار هذا النبات الصغير الذي بذرت بذوره في أواخر القرن الماضي دوحة باسقة وراء الظلال ، وكيف أصبح هذا البناء المتواضع صرحا شامخا تمتد الأطراف ، وكيف آل هذا الجهد الشعبي المتواضع إلى جزء أساسي من نظامنا القومي للتعليم .

وسنذكر مؤرخو النهضة المصرية الحديثة أن التعليم الحركان من أقوى الأركان التي قامت عليها تلك النهضة بما أناح للشعب من اضطلاع بعبء جسيم من أعباء الإصلاح الاجتماعي ، وبما مكن لأبناء الشعب المحرومين من ورود حياض العلم والانتهال من مائه العذب ، وبما ذلل من عقبات كانت قائمة في سبيل نشر العلم وتعميمه بين كل طبقات الأمة .

محمد عبد الواحد خلاف

---